عاشت فلسطين قرونا في هذا الوضع المتدهور . واثر اخلاء السهول من الفلاحين دخلت بعض القبائل واستوطنت هناك تستغلها كمراع مع توجه قليل شطر الزراعة . هكذا جاء عرب ابو كشك وقطنوا نهر العوجا واستولى عرب الحوارث وعرب النفعيات على المنطقة الممتدة بين القيصرية ونهر الغالق في السهل الساحلي الفلسطيني . واستوطنت عشائر اخرى في سهل مرج بن عامر وسهول الجليل الادنى . وكانت عشائر مرج بن عامر تقطع بدورها المرتفعات المنخفضة الفاصلة جبل الكرمل عن جبال نابلس للانتقال الى الساحل الفلسطيني الجنوبي وكان بعضها مثل عرب التركمان يصل حتى القيصرية(١٤). وشعرت هذه العشائر شبه البدوية في مناخ الفوضى بحرية الحركة ، باسطة سلطتها على المنطقة ، فارضة الخوة على المارة او معرضة اياهم للسلب ، بل للموت . وكان على قسم من هذه العشائر شبه البدوية بدورها دفع خوة لقبائل شرق الاردن خصوصا لبني صخر . بينما دخل قسم آخر في تحالف مع القبائل القوية وما يترتب عن ذلك من تضامن في الحروب والغزوات القبلية .

نتج عن الاضطهاد الدائم من قبل القبائل البدوية للفلاحين سكان المناطق المتاخمة للصحراء تحول قسم كبير من هؤلاء الى حياة البداوة ، اي انهم تركوا الزراعة ارتباطا بالرعي وما يتطلب ذلك من تنقل . ويساهم هذا الوضع في سرعة التنقل والهرب من وجه بدو الصحراء . تقلصت اثر ذلك الارض الزراعية لصالح الرعي(١٥). ولما كان الرعي وما يرافقه من عمل زراعي هامشي لا يستطيعان اعالة كثافة سكانية معينة ، تقلص عدد السكان حسب معادلة التوازن بين الانتاج والسكان في المجتمعات المعزولة . وتتحقق هذه المعادلة من خلال سوء التغذية وهبوط المستوى الصحي نتيجة هبوط مستوى الوضع السكني .

ان القاء اي نظرة الى جغرافية التوزع السكاني في ذلك الوقت كما نشاهده على خارطة صندوق استكشاف فلسطين يوحي بالصورتين الاساسيتين الاتيتين : الصورة الاولى التي ذكرت سابقا انتشار القرى الصغيرة والكبيرة على المرتفعات المشرفة على السهول او على منحدراتها المحصنة جغرافيا . اما الصورة الثانية فهي تجمع الاماكن المأهولة حول مدن كبيرة نسبيا ويتواجد القسم الجبلي منها مثل القدس ونابلس والخليل ضمن او على حافة سهول داخلية تمثل هذه المدن قطبا للقرى المحيطة بها . ويربط هذه المدن وكذلك المدن الساحلية طرق بدائية لا تكاد تصلح حتى للدواب والجمال، مملوءة بالحجارة لتساعد الحيوانات على تسلق الجبال . واحتوت المنطقة الجبلية الخصبة الممتدة من منطقة نابلس حتى بيت لحم على قسم كبير من القرى الفلسطينية . لكن صعوبة الاتصال بين المناطق الجبلية فرض العزلة على كثير من التجمعات القروية .

كان تعداد المدن الفلسطينية القطبية في اواسط القرن الماضي محدودا . وكان قسم منها مثل نابلس وخصوصا الخليل مدنا زراعية يملك سكانها اراضي زراعية . في عام ١٨٥١ كان تعداد سكان القدس اكبر المدن الفلسطينية ٢٣٥٠٠ شخص(١٦). لذا كانت امكانية تسويق المنتجات الزراعية محدودة جدا ، تنحصر في المنتجات غير المعرضة للتلف كبعض انواع الحبوب مثل القمح والشعير والسمسم ، والزيت والصابون والزبيب والبطيخ . ولم يكن يتوافر سوق واسع لتسويق المنتجات الطازجة مثل الخضار والفاكهة . ومع انه حصل تبادل اقتصادي مع بدو الصحراء لكنه كان هامشيا لا يؤثر على مجمل الوضع الاقتصادي . في اطار هذه الظروف اتسم طابع الاقتصاد بالاكتفاء الذاتي ، يتجسد في انتاج محدود يمليه الجو المناخي للمنطقة الذي لا يتطلب تجهيزا منزليا وانتاجيا عاليا ، عكس جو الصقيع والمطر الدائم الذي يحث على توسيع دائرة الانتاج وما ينتج عنه من شبه تقسيم للعمل .